جيل دولوز(*)
« الفلسفة ترحال »

د. عمر مهيبل (**)

«إذا كنتم تعتقدون أن لاجدوى من الفلسفة فلا تمارسوها»

"الاختلاف والتكرار"

فى مقال يحتفل فيه ميشال فوكو بصدور كتابين من أهم كتب جيل دولوز وهما: «الاختلاف والتكرار» و «منطق الحس» قال جملته المؤثرة :«فى يوم ما قد يصبح هذا العصر دولوزيا Mais , un jour Péut - ètre le siècle sera Deleuzien» دولوزيا بروحه الرافضة لكل صنمية وتماثل، التأثرة على الأنساق والانضباطية الفكرية والفلسفية الاحترافية، دولوزيا بتعايشه مع الجنون ودعوته إلى كسر طوق العقلانية الأداتية الصارمة، وتحرير الإنسان المعاصر من إرث التنوير الذى انبنت عليه الحداثة الغربية بتجلياتها الأكثر إيقانية وأهمها:

(*) جيل دولوز Gilles Deleuze من أهم الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين ، ولد سنة ١٩٢٥ وتوفى (انتحر) سنة ١٩٩٦ ، يمكن القول أنه فيلسوف دون «مرجعة فلسفية» محددة. وإن كان يميل بشكل واضح إلى فرويد ونيتشه . مارس البحث والتدريس فى عدة مؤسسات تعليمية إلى أن انتهى به المطاف فى جامعة باريس الثامنة (Vincenne) ، مؤلفاته تتسم بالتنوع والغنى ومن أهمها :«التجريبية والذاتية» Empirisme et Subjectivite (١٩٥٣) ، «نيتشه والفلسفة» Nietzsche et la philosophie (١٩٦٢) ، «فلسفة كانط النقدية» La philosophie critique de kant (١٩٦٣) «الاختلاف والتكرار » Difference et repetition (١٩٦٨) ، وهى عبارة عن أطروحته الجامعية الأساسية، «منطق الحس» Logique du sens (١٩٧٣) ، «ضد - أوديب» L'anti - Oedipe (بالاشتراك مع المحلل النفسانى فليكس غاتارى "١٩٧٢")، «فوكو» Foucault (١٩٨٦) ، «ما الفلسفة؟» Qu'est ce que la philosophie (١٩٩١) (بالاشتراك مع غاتارى) بالإضافة إلى كتب ومقالات أخرى كثيرة.

(**) أستاذ الفلسفة - قسم الفلسفة - جامعة الجزائر - من أهم مؤلفاته :

«البنيوية فى الفكر الفلسفى المعاصر» بالإضافة إلى مقالات كثيرة حول البنيوية والفينومنولوجيا والتأويلية فى مجلات عربية مختلفة مثل «دراسات عربية» «كتابات معاصرة» و«نزوى».

أ - الإيمان بالعالم الطبيعى بوصفه العالم الحقيقى الذى ينبغى التمسك به واستكشاف القوانين التى ينتظم وفقها وما يتبع ذلك من تراكم معرفى يسخر للسيطرة على الطبيعة وتطويرها واستغلال مواردها ومكامن الغنى فيها لخدمة الإنسان، فمصير الإنسان يحدد هنا على الأرض وليس هناك فى عالم المثل والقيم القبلية.

ب- الإيمان بالإنسان برصفه المادة الأولية والعنصر المحورى لأى تطور أو فعالية فهو الغاية والوسيلة فى الوقت ذاته وهو الذى يمثل نقطة التجاذب الرئيسية فى أية عملية مفترضة لإعادة ترتيب العلاقة بين الذات وأشياء العالم الطبيعى.

جـ- الإيمان بالعقل وبقدراته وطاقاته إيماناً لا نظير له. إنه ببساطة واسطته لإدراك الحقائق والمعارف التى تمكنه من تنظيم حياته وتشييد حضارته، إذ وبمقدار اكتشافه لأسرار الطبيعة وقوانينها الأساسية بمقدار ما يشعر بتخلصه من ضغط المجهول القادم من غياهب المستقبل.

على أن الخوض فى عالم دولوز الفسيفسائى مغامرة غير مضمونة النتائج، إذ فضلاً عن أسلوب «الكتابى» المعقد والغريب نجد غرابة أكبر عند التأمل فى لائحة المباحث والموضوعات التى عالجها، فمن الفلسفة إلى الأدب، ومن المسرح إلى التحليل النفسى ومن الموسيقى إلى الشعر، كل هذا يتم باستخدامه لمستويات منهجية متباينة تتراوح بين التحليل الفلسفى المجرد والتحليل النفسانى المستند إلى مكاسب التحليل النفسى، والأسلوب الجمالى والفنى الموظف لمختلف أنواع التعابير الحسية الأمر الذى يضاعف من زئبقية هذا العالم ويكثف من ضبابيته الأولية، هذه الضبابية يمكن تأكيدها من خلال الملاحظة الأرشيفية التالية:

على الرغم من وجود تراكم نظرى ملحوظ (كتب، مقالات، محاضرات، مقابلات) إلا أن كتابات دولوز لم تحقق المقروئية المنتظرة كما هو الحال بالنسبة لفوكو ودريدا مع أنهم يسبحون فى عوالم متقاربة، إن لم نقل متداخلة ، فما مرد ذلك عند دولوز؟

إن مقاربة الباحث «ريمون بيلور» Raymond Bellour توضح لنا بعض المعالم الأساسية فى هذا المعنى حين يقول: «هذه الكتابات صعبة متنوعة، عنيدة، لا يمكن التنبأ بما ستحمله دائماً . إنها فى اتصال مباشر مع كل ما تبقى من كل شىء (الفكر، الفن، العلوم، الأجساد، الحيوانات. . .) من جهة، وهى من جهة ثانية تستبق بشكل دائم كل ما تلمسه بحيث يتحول الوجود الحادث فى إطارها إلى وجود بالقوة انطلاقاً من أن الفلسفة الأولى هى خلق المفاهيم بغرض فتح فضاءات بين ما هو آت وبين ما سيأتى والتموقع داخلها»[1]. وإذا كان هذا التنوع، وربما التباين يشكل عائقاً منهجياً أمام قراءة أعمال دولوز وفهمها ، فإنه بالمقابل يشكل عامل غنى وثراء يجعلها مفتوحة، مرنة، متعددة المداخل، منفتحة على العوامل الفكرية المتباينة بدل التقوقع داخل نسق فلسفى جامد يحد من حركيتها وقدرتها على استشراف أحاسيس الإنسان وانفعالاته فى مهدها الأول، لذا فإن القوة المركزية فى فكر دولوز هى هذا التجاذب بين الأحداث والأفكار والأحداث والأماكن والأعلام ، تجاذب ينقلنا من الوضعية إلى الفنومنولوجيا، إلى فلسفة التاريخ إلى العالم، إلى الجسد، إلى اللّه، إلى الأنا، تجاذب يحدد معالم الفكر عبر دروب الجدل الملتوية ويرسم حدود التلاقى بين الأنا والآخر وبين الأنا والعالم ضمن سيرورة التقارب والتباعد ، تجاذب يشكل الأرضية الخصبة لتكون المفاهيم ونموها انطلاقاً من أن المفاهيم تؤدى دور منظومة الإسناد الرئيسية والمحرك المحورى فى كل عملية قصدية لإنتاج المعارف عبر نظام اللغة، ولأن ثقافة الإنسان وركام معارفه المختلفة وكذا طبيعة رؤيته للواقع هى التى تحدد معنى المفاهيم أثناء استعمالها.

ذلك أن مهمة الفلسفة الأولى عند دولوز هى خلق المفاهيم ونحتها وهى مهمة تنفرد بها الفلسفة عن باقى المعارف الأخرى من حيث كونها مبحثاً ثورياً ، جينالوجيا لا يتوقف عن ابتكار المفاهيم وغرسها وسط الحقول المعرفية المختلفة، فالمفهوم عنده يمنع الأفكار من أن تتحول إلى آراء بسيطة أو إلى مجرد محادثة أو

«دردشة» عابرة، فكل مفهوم هو مفارقة بالقوة وهو يشتمل على بعدين أساسيين هما: الإدراك والمؤثر.

الإدراكات عبارة عن مجموعة من الإحساسات والعلاقات التى تحافظ على وجودها عند من يشعر بها، أما المؤثرات فليست عواطف أو ميول، بل إنها سيرورات تلتف وتتجاوز من يمر بها ويصبح مختلفاً معها، فالمدرك والمؤثر والمفهوم يمثلون قوى متجاورة لا تتفرق، تنطلق من الفن إلى الفلسفة وبالعكس[٢].

إن فعل الكتابة عند دولوز - وبخاصة فى كتاب «الاختلاف والتكرار»- هو بمثابة محاولة فريدة تسعى إلى تثمين الحياة ومحاولة تحريرها مما يسجنها ويحد من فعاليتها لأن عملية الخلق فى معناها الأشمل لا تعنى التواصل ولكن تعنى المقاومة، مقاومة ما قد يحيل الحياة إلى مجرد استبطان شخصى يحكى هموم الذات وانحرافاتها ، أو أن يحيلها إلى حكايا وشروح مجردة مع أن المجرد ذاته فى حاجة إلى شرح وهذا تأسيساً على الفكرة القائلة بأن المفهوم ليس معنى عاماً أو شاملاً، بل هو مجموعة من التفردات والخصوصيات تعمل كل منها على تجاوز الأخرى، كما أن الطابع التعددى للمفاهيم وظهورها فى أشكال قد تكون متضاربة أصلاً هو الذى دفع جيل دولوز إلى اعتقاد أولى مفاده أن صورة الفكر هى التى توجه منحنى إبداع المفاهيم، ذلك أن المفاهيم تنعكس فى مرآة الفكر من جهة وتعكسها من جهة ثانية لذا فالألفاظ التى لا تستوفى شروط الانعكاس المنتظرة فإنها لا ترقى فى تحديده إلى مرتبة المفاهيم، ومن ثمة لا يمكن لها أن تنجز المهمة نفسها المنوطة بها فى مجال توجيه عملية بناء الأفكار الفلسفية من خلال جهاز المفاهيم[٣].

من هنا فإن عملية إبداع المفاهيم، حتى لا نقول نحتها، ليست بالمسألة الهينة التى تعرض ذاتها كتقنية محضة أمام الفيلسوف الذى يستخدمها فى مواطن شتى، وهى تخرج من جوف «الكتابة الفلسفية» كما يخرج المولود الجديد من بطن أمه عبر سلسلة من الآلام والمعاناة القاسية، لتفضى فى النهاية إلى بروز المفهوم كاملاً ومكتملاً بعد أن يكون قد نضج وترعرع فى رحم نظام الأفكار الذى يؤسسه

الفيلسوف. لذا سيكون من الخطأ الاعتقاد بأنه يمكننا الحصول على المفاهيم الجديدة مثلما هو الحال فى مستوى المفردات اللغوية العادية التى يمكن التوليف بينها عن طريق صيغ تعابرية عادية.

وعندما يتساءل «ما الفلسفة؟» فى كتابه الذى يحمل العنوان ذاته، فإن دولوز لا ينوى من وراء ذلك تقديم ما يشبه الإجابة بقدر ما كان يهدف إلى مجاوزة التحديد اليونانى لمعنى الفلسفة من حيث هى محبة الحكمة أو معرفة بالمبادئ الأولى، وإلى محو ما علق بمخيالنا من صور تحيل إلى السرمدية وعالم المثل، إذ سوف تتحول الفلسفة من محبة الحكمة إلى عشق ومحبة فقط، وسوف يتحول الفيلسوف المنعزل فى صومعته بعيدا عن الناس يبحث فى تطابق الفكر مع ذاته إلى رحالة مجاله الأرض بتضاريسها الحية، لذلك لقب دولوز «بالفيلسوف الرحالة» Le Philosophe Nomade وسميت فلسفته «الجيو-فلسفة» Geo-philosophie .

«والجيو» هذه قد تعنى الأرض، وقد تعنى الجيولوجيا، وقد تعنى الجغرافيا ، وقد تعنيها كلها، وقد لا تعنيها كلها، لكن الأكيد ضمن هذه التغيرات هو أن مفهوم الفلسفة برمته صار أكثر رحابة ، وأوسع مجالاً ، وأكثر قلقاً. حتى يمكننا القول أنه قد تصبح الفلسفة أى شىء إلا أن تكون فلسفة، ذلك أن الاطمئنان إلى يقين الأجوبة يحول الفلسفة إلى مجرد «تعاليم» أو «وصايا» ، لذا فهى تسعى دائماً إلى خلخلة المتفق عليه واستحداث مناطق غير آمنة داخل الكائن تتوالد فيها بذرة السؤال باستمرار.

يبدأ دولوز فى مقاربة ماهية الفلسفة انطلاقاً من مساءلة المفهوم، وانطلاقاً من فهمه الأول للفلسفة الذى لا يرى أنها تقوم على خلق المفاهيم والتعايش معها، وانطلاقاً أيضاً من أن :«الفيلسوف هو صديق المفاهيم، بل هو مفهوم بالقوة. والفلسفة ليست مجرد فن للتشكيل أو الاختراع أو صنع المفاهيم، فالمفاهيم ليست بالضرورة أشكالاً أو اكتشاف مواد. الفلسفة فى شكلها الصارم هى الفرع الذى يهتم بخلق المفاهيم»[٣].

مع ملاحظة بسيطة وهى أن إعادة التساؤل حول مفهوم ما ينبغى أن يضع فى الحسبان زمن السؤال وظرفه وأشخاصه لأن المفاهيم ليست مفردات للحقيقة بقدر ما هى أدوات أو مفاتيح تتعامل مع أجواء هذه الحقيقة، والمفهوم أيضاً ليس هو ذلك الاصطلاح المنطقى المجرد، بل إن له شخصية مفهومية مهمتها زرع المفاهيم فى الأراضى الجديدة، إنه ينزل إلى الحدث، وقد يغدو من أبرز حدثاته فهو لا يكتفى بإعطاء ذاته ، لكنه يتدخل فى عملية استكناه غيره، بمعنى إنه لا أهمية للمفهوم منقطعاً عما يمفهمه فهو ينخرط فى تكوين ذاته عبر تكوينه لغيره، ولذلك نجد دولوز لا يجتهد فى طلب المفهوم لذاته تأسيساً على تصوره الأولى الذى يرى أن المفهوم لا موضوع له وليس هو بموضوع، إنه خلق يحتاج إلى أرض وإلى شخص يمكنه التأثير من خلاله، وهو ليس بسيطاً ، وليس تشكيلاً خطابياً يتسم بالتتابع والاتساق، بل هو شىء دائم التحرك وينتشر بعيداً عن أى مركز، فهو ضد المركز وضد الكليات بمعناها التقليدى ، ثم إنها تتمثل فى طريقته الطريقة فى البحث عن المفهوم، وفى تمييزه بين ما هو مفهوم وما هو ليس بمفهوم أو ما هو شبه مفهوم، فلكل نمط معرفى منظومته المفاهيمية لكل شكل من أشكال التفكير خاصيته. فالفيلسوف مثلاً يفكر بالمفهوم وفى المفهوم، والعالم بالوظيفة، والفنان بالإحساس، والمفهوم فى الأخير، وما دام مخلوقاً فإنه يحمل سمات صانعه أو الفيلسوف الذى صاغه ، وهذا يؤدى إلى نتيجة هامة شقها الأول يتمثل فى أن كل فلسفة هى تجربة ذاتية، فريدة لا تتكرر مهما تقارب الشكل الظاهرى بين الفلسفات والحقائق[٥]،وشقها الثانى مفاده إن لا معنى للحديث عن صواب المفهوم أو خطئه ولا معنى للقول بأنه حقيقى أو غير حقيقى فكل مفهوم له حقيقته وطريقة وجوده.

والفيلسوف عند دولوز «رحالة» موطنه البيداء الواسعة ، فقد سئم الأماكن المظلمة والمفاهيم المنحوتة عبر تاريخ الفلسفة الطويل، الفيلسوف هو ذلك الذى لا يكف عن الترحال الدائم نحو مناطق خصبة، يمكن للمفاهيم أن تزدهر فيها كما يبحث البدوى عن العشب والكلأ لحيواناته فى المناطق الخصبة لذا لقب دولوز بالفيلسوف الرحالة وعرفت فلسفته بأنها فلسفة بداوة وارتحال[٦]، بل إنها صارت

عملاً تأسيسياً لما يمكن تسميته «بدويات» أو «فن الترحال» Nomadologie الفيلسوف «رحالة» مسكون بشعور الغربة عن ذاته ولغته وموطنه، وتتجاذبه رحلات ثلاث: رحلة فى الماضى اليونانى موطن الفلسفة الأول كما يرى دولوز ، ورحلة فى الحاضر الغربى الحالى الذى يمتلك زمام المبادرة الفلسفية الآنية ورحلة غير محددة المعالم فى المستقبل، رحلة لا تعرف اسمها ولا مكانها ولا شعبها لأن فعل التفلسف ليس حكراً على أحد وإنما هو ينجلى لمن له القدرة على الاختراق والمبادرة.

إن إبداع المفاهيم عند دولوز يفترض النظر إلى التجربة نظرة مرنة، مغايرة تضعها فى بعدها المذهبى الجديد الذى يطلق عليه «التجريبية المتعالية» ، إنها تجريبية لأنها ملتصقة دائماً بالمحايثة، ومتعالية لأنها، وعلى الرغم من محايثتها، فإنها تنفتح على اللامتناهى ، على السديم (أو الكاوس) Chaos(*)، كما أن إبداع المفاهيم ينجلى فى نص دولوز بصورة موسوعية حيث يمارس فلسفياً حق «اختراق التخوم» بما لم يفكر به «جورج باطاى» Georges Bataille نفسه وهو صاحب نظرية الاختراق و«التجريبية المتعالية» عند دولوز تتجاوز تعارض الذهبيات التقليدية بتناقضاتها الشكلانية لتؤسس لبنية معرفية جديدة تخترق الحواجز المصطنعة بين شكل المعرفة ومضمونها ، بين ذاتيتها وموضوعيتها وبالتالى بين فلسفيتها وبين تشتتها فى ميادين مساوقة لها.

لم تكن رحلة دولوز الفكرية سهلة ولا متناسقة لأنه أراد لها أن تكون كذلك، كما فعل كير كجارد Kier Kegaard من قبله حيث أمضى حياته «الوجودية» القصيرة فى بحث متواصل عن الألم واليأس والشقاء. لقد كانت حياة دولوز ترحالاً متواصلاً بين الأفكار و«الأغيار» أى ما دون اناه الخاصة فى برية منفتحة على كل الاحتمالات لذا، ولكى يمكنه التعامل مع هذه البرية المطلقة فإن الفلسفة وهى فى اغتراب دائم عن جسدها المصطلحى تفارق أساليب برهنتها المعهودة وتنخرط فى شئون الكشف وحده : كشف يتم باللغة وفى اللغة إذ أن لها فى كل لحظة لغة مختلفة تتلون بتلوينات اللحظة الآنية .

إن التعمق فى تحليل فلسفة دولوز وعطفاً على ما سبق، يؤدى بنا إلى طرح السؤال التالى:

هل ثمة مفهوم دولوزى للمفهوم انطلاقاً من أن نحت المفاهيم يمثل ذروة حواره الطويل والمعقد مع تاريخ الفلسفة، ذلك أن بحث مسألة المفهوم فى شكله المجرد غالباً ما يختلط عند البعض بمفهوم مساوق هو مبدأ الهوية انطلاقاً من أن هذا المبدأ يمثل الإطار النظرى الأمثل الذى تمحور حوله البحث الميتافيزيقى التقليدى، ومن ثمة صار من الصعوبة بمكان التخلص من إسقاطاته المتعددة - خاصة وأنه ارتبط بشكل أساس بالمنطق الأرسطى وهو ما هو فى تاريخ المعرفة البشرية - وأهم هذه الإسقاطات هو أن مبدأ الهوية يؤدى مباشرة إلى المذهبية وبالتالى إلى الانغلاق عن الواحد الأوحد، والثابت، لذا فإن كسر بوتقة المذهبية والانغلاق يتطلب إعادة قراءة شاملة لتاريخ الفلسفة وهذا بالضبط ما باشره دولوز من خلال كتبه المتعددة قصد بلورة مداخل جديدة لتحليل المفهوم ، فمن كانط إلى نيتشه ، ومن لا يبتنز إلى برغسون، ومن بول ريكور إلى صديقه فوكو عمل دولوز على تفتيت مفاهيمهم الرئيسية إلى «أفاهيم»(*) تظهر نسبيتها وجزئيتها وهذا عكس ما تدعيه تماماً ، على أن علاقة دولوز بفوكو تتميز بنكهة حميمة خاصة، إذ بالإضافة إلى جوارهم المكانى الذى ولد لديهم شعوراً متنامياً بالغربة داخل مجتمعاتهم حيناً وبالانزواء فى أقبية «الأرشيف» أحياناً أخرى، فإن فوكو يعد الوحيد من بين الفلاسفة الذين تمحورت حولهم كتابات دولوز الذى اضطلع بمهمة قراءة إنتاج دولوز ليس لفهمه ولكن للبحث عن ذاته هو وبخاصة فى كتابه المذهبى - إن صح التعبير - «التكرار والاختلاف» لاحتوائه على أهم المقولات الفلسفية التى وظفها فى بناء مشروعه الفلسفى توظيفاً مثمراً. كما أنه يمثل - على الأقل فى تصورنا - أورغانون مبحث «الاختلاف» الذى بدأ يحتل مساحات واسعة ضمن

(*) تحمل خاتمة كتاب «ماهى الفلسفة؟ عنوان» من الكاوس (السديم) إلى العقل (المخ).
Du chaos au cervaeu.

الأفق المعرفى الفرنسى والغربى إجمالاً ، ذلك أن «التكرار والاختلاف» يتفرد عن مجمل المنظومة الكتابية لدولوز بأنه كتاب نظرى - تنظيرى مارس فيه ترحالياته البهيمية والفجائية داخل مفاهيمة فى حين أنه فى كتبه الأخرى خاصة كتاب «منطق الحس» يمارس تطبيقات لا حدود لها فى مختلف هوامش الإنتاجات الأدبية والفنية والفلسفية وأحياناً حتى العلمية منها وذلك بغرض التأسيس لبناء منظومة مفاهيمة الخاصة.

على أن الأمر المثير للانتباه فى هذا السياق هو أن دولوز حتى وهو فى قمة إنشغاله بالتفكيك النظرى لمفهوم من المفاهيم لايغفل عن الانشغال بنصوص غيره والانخراط فيها ومحورة سؤاله الفلسفى حولها، سؤال يمتد من المنطق إلى العلم ومن الرسم إلى الموسيقى، ذلك أن أصعب المهامات وأعقدها دائماً تلك المهمة المتعلقة بتسجيل الآثار الإبداعية مصحوبة دائماً بأنظمتها المفهومية المعقدة، وبمصطلحاتها المنحوتة الجافة التى يجد القارئ صعوبة كبيرة فى فك رموزها التى يتداخل فيها ما هو علمى بما هو أيديولوجى، وما هو فلسفى بما هو جغرافى، ومن أهم هذه المصطلحات مصطلح «الجيو - فلسفى» أو «الجيو - فلسفة» وهو أفهوم دولوزى جديد متشعب الدلالة يطمح إلى وضع أساس لتفسير تاريخاً فى مختلف لعلاقته الإبداعية المفهومية بتكوين الثقافات والحضارات، ولعلاقة المفاهيم بعضها ببعض وتداخلها إلى حد التشابك حتى أنه يرى فى الاعتقادات الدينية مواقف شبه فلسفية قد تمزج بين الصور والمفاهيم، ذلك أن دولوز ومع تمييزه بين ثقافة الصور وثقافة المفاهيم فإنه لم ينجر صراحة للتمييز بينهما بسبب إشكالية الموضوع، فالفلسفى قد يجاور الدينى لكن لابد أن ينقطع عنه، وهذه هى الميزة التى أبدع اليونان فى التعايش معها كما يرى «جون بوفرى» Jean Beaufret فى تحليله لمفهوم الكينونة عند هيدغر الذى يرى بدوره أن السبق الفلسفى هو أهم خاصية للإغريق

(*) الأفهوم هو الوحدة الأصغر فى المفهوم ، بمعنى أن المفهوم يتكون من أفاهيم متعددة تشكل وحدته فى النهاية.

الذين يؤلفون بدورهم التاريخ السابق للغرب أو المؤسس له وبذلك تم حرمان بقية الحضارات من حق احتفاء الفكر بذاته(٧).

بيدا أن الهدف الأبعد من اهتمام دولوز بهيدغر لا يتعلق بتبرير الحركية الفلسفية اليونانية عن طريق أسرار المعطى اللغوى الذى وفرته اللغة اليونانية بحيث استطاعت أن تشكل بعض لحظات الكينونة على شكل مفاهيم فصارت لغة الكينونة بامتياز ، أى لغة استيطان الكينونة فى الأرض.

إن مفهوم «الجيو - فلسفى» عند دولوز يحيل فيما يحيل إلى تطوير المفهوم الهيدغرى الذى يرى أن الجدوى الحقيقية لسيرورة الكائن هى بلوغ «الاستيطان» أو «الإقامة» انطلاقاً من عمليات متكاملة هى: البناء، الإسكان فالتفكير، ذلك أن الكائن لا يمكنه التفكير إلا إذا وفر الشروط الضرورية لهذا التفكير كنقطة انطلاق أولا نية وعلى رأسها الاستقرار فى حيز معلوم يكون هو ذاته موطن الكينونة لكن ومع تسليم دولوز بأهمية الموروث اليونانى ومن ثمة الغربى، فى مجال إبداع المفاهيم ونحتها، إلا أنه يرى أن هذا الموروث لا يستوفى شروط التكامل المعرفى الجيو-فلسفى كما حدده فى البداية، فاليونان اهتموا بالمسطح رياضياً وبالمثال فلسفياً أى أن فضاءهم المعرفى بقى فضاءً نظرياً تأملياً، أما الغرب - أى ما يتصل باليونان من دونهم - فقد حصل المفاهيم ولكنه لم يستطع أن يحدد لها أرضاً معينة يمكنه أن يحط بها فوقها، وهذا ما يوضحه فى قوله: «نحن نتأرضن "أى نستقر" عند اليونان، لكن بالنسبة لما لم يكونوا يمتلكونه وما لم يكونوا عليه بعد بالرغم من أننا نجعلهم يعيدون تأرضنهم عندنا»(٨).

بيان ذلك أن المفهوم، ورغم قدمه الزمنى لم يكمل مداره الجيو-فلسفى، فهو مازال يبحث عن موطن يستقر فيه وشعب يتجلى من خلاله.

لقد اكتشف الغرب إبداعية المفاهيم بعد أن تحرر من سلطان المفارقات الغيبية، وبعد أن انخرط فى تشكيل الأطر الكبرى لبلورة مفاهيم الحداثة انطلاقاً من أن مفاهيمها هى المحرك المحورى للفلسفة فى المرحلة المعاصرة وهى السيرورة -

المشروع الباحثة عن موطن جديد للاستيطان فيه حيث تصير الفلسفة لا فلسفة وحتى تصير اللافلسفة هى أرض الفلسفة وشعبها ، تعليل ذلك هو أن أقصى ما قد يفعله الفيلسوف عند دولوز هو أن يمتلك حدساً بالسيرورة التى قد تكون هى نفسها حادثة تاريخية ليس بالمعنى التراكمى للحادثة لكن بما هى أقرب إلى مجاوزة التاريخ ذاته وهو هذا المعنى يبقى أقرب إلى "التجريبية المتعالية" من حيث أن التاريخ لا ينبغى أن يحد بالأهداف العليا التى تنطوى على الطوبائيات وتمفهمها الإيديولوجيات ومن حيث أن السيرورة هى الحدوث الدائم الذى يحمل غايته فى ذاته.

إن «التجريبية المتعالية» فى تحديد دولوز هو إعادة النظر فى تاريخية المفهمة، أى فى الإطار الذى يتم فيه نحت البناء المفاهيمى بناء يؤسس لمنطق جديد هو منطق الاختلاف، منطق يعمل على مراجعة التقاطعات التقليدية بيت الفن والعلم والتاريخ، ذلك أن دولوز لا يتوقف عند حدود الترسيم النظرى لهذه التقاطعات، بل إنه يعمل وبنهم كبير على إقحام الفلسفة فى المباحث سابقة الذكر، حتى وإن تمترست هذه الأخيرة خلف أسوار الاختصاص والخصوصية وبخاصة ما يتعلق منها بالعلم، إذ يرى أن الخلاف الأساس بين العلم والفلسفة - على الرغم من تباعدهما الشكلى - يتلخص فى اهتمامهما بموضوع واحد ومفهوم «الكاوس» أو «السديم» فالعلم يرى فيه اللانظام، حتى لا نقول الفوضى فى شكلها الفطرى ومن ثم تكتسب قوانين العلم كل أهميتها وشرعيتها وسط هذه الفوضى ، فى حين أن الفلسفة ترى فى السديم مسارح مفتوحة على اللامتناهى بكل إغراءاته ومنطق الغموض فيه. وفى الوقت الذى يبحث فيه العلم عن الإسنادات والمرجعيات بهدف عقلنة التغيير وضبط حركاته، فإن الفلسفة تسعى إلى الحفاظ على السرعات اللامتناهية دون أن تتخلى عن اكتساب نقاط الارتكاز الثابتة بوصفها لحظات تكثيف لا تحيل إلى السكون بمعناه البسيط[٩].

ومع أن دولوز يؤمن بأن العلم فى أحداث تطوراته المذهلة قد صارت أبحاثه تترنح على التخوم الدقيقة بين المتناهى واللامتناهى، بيد أنه لا يمكنه أن يستخدم الدالات المحدودة مثبتاً إشكالاً للتعريفات تقع خارج كل إطار، وهنا بالضبط تتدخل الفلسفة لتساهم باكتشاف المفاهيم التى قد تحادى أو تناظر الدالات الرياضية، إذ لا يمكنها ترميزها انطلاقاً من لغتها الرياضية وحدها وهذا فى الواقع أنه أمر أثبته العلم المعاصر فى خطواته نحو اللانهايات التى تعيد وحدة الفكر بين المفاهيم الفلسفية الكونية والترميزات الرياضية، على أن طريقة دولوز فى تجريبيته الجديدة المبثوثة بشكل فسيفسائى عبر مؤلفاته الأساسية لا تسعى إلى توحيد اصطناعى بين المفهوم الفلسفى والوظيفة العلمية، أى بين ضبط الثوابت وصياغة المتغيرات بمقدار ما يسعى إلى مقاربة التغيير ذاته.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا ما ذكرنا أن الجانب الشكلانى فى بناء دولوز الفلسفى أهم بكثير من مضمون هذا البناء، ذلك أنه يرى كبار الفلاسفة وبصرف النظر عن ماهية ما يكتبون هم كتاب مهرة يتمتعون بأسلوب كتابى أخاذ ، فالأسلوب يمثل حركة المفهوم. صحيح أنه يوجد خارج الجمل لكن الجمل لا هم لها إلا أن تبعث فيها الحياة، حياة مستقلة. الأسلوب هو جعل اللغة أكثر قابلية للتغيير وأكثر انفتاحالا على العالم الخارجى، إن الفلسفة مثلها مثل الرواية تجعلنا دائماً نتساءل عما سيقع وعما وقع مع فارق أساس وهو أن الشخصيات هنا عبارة عن مفاهيم»(١٠).

وفوق هذا وذاك فإن الهدف الأسمى والأبعد لما نكتبه هو تحرير الحياة من مظاهر القمع والانغلاق ورسم دروب الهروب والانعتاق من الأنسقة المختلفة التى تكبله وهنا تأخذ وسيلة التعبير الكتابى التى هى اللغة كامل مصداقيتها أداة أساسية فى تشكيل لا تجانس لغوى يعمل على تجديد حيوية الأنسقة الثابتة من جهة، وعلى خلق مناطق توتر غير آمنة لدى الكائن الإنسانى تكون بمثابة تطلعه المستقبلى لما هو أكمل من جهة ثانية.

لقد شيد دولوز منظومته الفكرية - لأنها تجمع عناصر إبداعية عديدة - وفق مقولة بسيطة مفادها أن الفيلسوف الكبير هو ذلك الذى يتمكن من إقناع قرائه بممارسة التفلسف والغوص فى أعماق الحياة الفلسفية بكل تعقيداتها بوصفها حياتهم الأكثر التصاقاً بطبيعتهم، وهكذا فمنذ كتابه «التجريبية والذاتية» بدأ رحلة البحث المضنية عن منهجية جديدة تضعه فى صلب الإشكاليات الفلسفية بطريقة مباشرة تنفى الفوارق الكلاسية بين المفهوم وصورته، بين الفلسفة وفعل التفلسف، وبين الفلسفة وتاريخها وهذا ما يعبر عن الباحث جون رشمان John Raychman بقوله: «كيف نخرج من تاريخ الفلسفة؟ كيف نذهب أبعد من الفلسفة القائمة ونبتكر أسئلة جديدة؟ هذا البحث عن صورة فكرية مغايرة هو البحث نفسه الذى ما انفك دولوز يواصله فى مؤلفاته المختلفة عبر توليف ماهر بين مجموعة من المعارف كالكتابة والرسم والسينما ، والسياسة» فما معنى الخروج من تاريخ الفلسفة يا ترى؟ هل هو نفى للفلسفة أم مجاوزة لها؟ وهل النفى هو المجاوزة؟ إن الخروج من تاريخ الفلسفة يعنى بالدرجة الأولى التحرر من المفهوم الهيجلى والهيدغرى للفلسفة(*)، ذلك أنهما يحيلان مباشرة إلى أعتى التصورات الميتافيزيقية الأكثر ضبابية والأكثر تعقيداً انطلاقاً من الأنطولوجيا اليونانية المتمحورة بشكل أساس حول نظرية الوجود ووصولاً إلى المرحلة الحديثة بمثالياتها المطلقة المقدسة للعقل والتاريخ. على أن ما يثير فضول دولوز ليس هذا الأمر المتعلق بمصير الأنساق الفلسفية وتحولاتها المستمرة - على أهميته - وإنما المصائر الفردية للفلاسفة بوصفها صحائف مفتوحة على المجهول والذى يمثل الأرضية الخصبة التى تحب بذرة الفلاسفة التكاثر فيها. وهكذا لا تبقى الفلسفة مجرد تأريخ لأحداث الفكر وعملياته وإنما تصبح الحدث ذاته ببعديه الخاص والعام: خاص من حيث أن للمفكرين خصوصيات تميزهم عن بعضهم بعضا، وعام من حيث أن الخصوصيات الفردية نفسها قد يتولد عنها نظريات ومفاهيم تكون أنساق عامة.

(*) هذا الموقف يقترب من موقف جاك دريدا Jacques Ferrida فى نقده لما يسميه «ميتافيزيقا الحضور» ولا غرابة فى ذلك ، فموقفهما من الميتافيزيقا متشابه إلى أبعد الحدود.

وفى «منطق الحس» يباشر دولوز مقاربة جديدة لا تضع تحديث منهج البحث الفلسفى وتطويره كأولوية مطلقة وإنما توجه اهتمامها إلى البحث فى ماهية العلاقة القائمة بين الإنسان والمفكر والعالم أو الأشياء، بين الإنسان وعالم الأفكار وكيف تنسج العلاقة بين الفكرة والمكان (الجغرافى) فيصبح كل العالم موضع أشكله وخزاناً لأسئلة متواصلة لا تجد لها أجوبة جاهزة. ذلك أن الجغرافيا (بمعنى المكان) وإن كانت تبدو من طبيعة مغايرة لطبيعة الفكر (بمعنى الفلسفة) إلا أنها فى نظر دولوز يشكل عنصراً مسانداً هاماً لهذا الفكر، إذ لا يمكن لأى تصور مهما حلق فى الفضاء إلا أن يعود فى النهاية للارتكاز على الأرض. هذه النتيجة أدت بدولوز إلى رفض «التاريخ التمثلى» (أو التاريخ الذاتى) بوصفه تاريخاً نظرياً يغرى بكل أنواع الاغتراب والتداخل حتى لا نقول التيهان، اغتراب ينفى الاختلاف كنقطة إثراء فكرية هامة ليؤسس لمبدأ النمذجة التماثلية المبنية على التصور الواحد الأوحد، النسقى، وهو التصور الذى تمتد جذوره إلى أبعد مدى فى التاريخ الفلسفى الغربى[١٢] بحيث صار كالمرض الذى لا شفاء منه، فمن أفلاطون إلى هيجل قضت البشرية أشواطاً طويلة من الانهمام بالبحث عن الحقيقة المطلقة المجردة بوصفها أسمى أنواع المعارف. وفى الجزء الثانى من الرأسمالية والفصام وهو بعنوان «ضد - أوديب» يواضب دولوز على درب النقد الحاد لكل ما يحيل إلى النسقية والانغلاق، ولكن من زاوية مغايرة - مكملة وهى زاوية التحليل النفسى الذى تزداد أهمية اللجوء إلى خدماته كلما ازدادت حياة الأفراد تعقيداً، ومن ثم كلما ازدادت نقاط التساؤل داخلها. إن أهمية "ضد - أوديب" فى تحديد دولوز تكمن فى كونه وسيلة لاكتشاف الذات والآخر معاً من جهة، ومنهجاً جريئاً فى نقد بعض النتائج المتسرعة التى وصلت إليها «الفرويدية - الماركسية» Freudo - Marxisme ممثلة فى شخص زعيمها الأول «هربرت ماركيوز» Herbert Marcuse بالاستناد المغالى فيه إلى معطيات التحليل النفسى خاصة ما تعلق منها بدور الغريزة الجنسية فى بلورة مفاهيم الحركية الاجتماعية وما يكتنفها من صراعات تؤثر بشكل من الأشكال فى هذه الحركية.

ومع أن «ضد - أوديب» عبارة عن كتلة نقدية لمجمل الإنتاج النظرى لمرحلة الستينيات والسبعينيات، إلا أنه لم يغفل فى النهاية ربط هذا النقد بالبنية التى أنتجت فيها هذه النظريات وبمنتجيها أو أشخاصها فيما يشبه الدعوة إلى «شخصنة الفكر»، من هنا فإنه يصبح فى مواجهة فئات ثلاثة:

١ - محترفى السياسة (السياسويين)، والمناضلين المزيفين وإرهابى النظرية، وباختصار كل أولئك الذين تتخلص مهمتهم فى الحفاظ على الانتظام العام للنسق السياسى وكل بيروقراطى الثورة وموظفى الحقيقة.

٢ - تقنيى الرغبة من المحللين الذين لا يهمهم سوى التأسيس لبنية جديدة لهيكلة مسألة الرغبة وذلك بجعلها احتياجاً دائماً.

٣ - الفاشيين الجدد، بل كل الفاشيين، طبعاً نحن لا نقصد هنا فاشية هتلر أو موسولينى، فهذا أمر تاريخى معروف، ولكننا نقصد الفاشية الكامنة فى أعماق كل منا، والتى تؤثر فى مخيالنا وسلوكنا دون دراية منا. وهذا مفاده أنه لكى يغلق باب المواجهة آنفة الذكر ينبغى تغيير ترتيب سلم المقولات الفكرية والاجتماعية وذلك بالتأكيد على ترسيخ الاختلاف وتحرير مجال الفعل الفلسفى والممارسة السياسية، وكذا التخلص من عبودية المنغلق سواء أكان نسقاً أو نظاماً أو غير ذلك.

لقد كانت فلسفة دولوز إبحارا متواصلاً فى عوالم متوحشة ترفض منطق الاتساق وتنبذ الاطمئنان إلى يقين الأجوبة، عوالم تخلصها أسماء «كانط» Kant ، «بيكون» F.Bacon، «سبينوزا» Spinosa، «فرويد» Freud، برغسون Bergson ، «كافكا» Kafka، بروست Broust، «نيتشه» Nietzsche، «فوكو» Foucault.

إذ بمقدار ما كانت فلسفته اختراقاً ومجاوزة لأفكار بعضهم فقد كانت عنهم وفيهم، كانت غوصاً فى عوالمهم الخفية، غير المعروفة، وفى أفكارهم غير المتداولة. أو على الأقل كما يعتقد هو، ومن أطرف هذه الأفكار ما ورد فى كتابه حول «نيتشه» حيث يحذرنا من أننا لن نفهم مقاصد نيتشه الحقيقية فى فلسفته ما لم

نتجنب الاعتقادات التالية - مع إنها هى السائدة - عندما نباشر أى تحليل متعلق به:

- أن نعتقد بأن فلسفة القوة عند نيتشه تعنى «الرغبة فى الهيمنة» أو الرغبة فى تملك القوة.

- أن نعتقد بأن المحظوظين - الأقوياء - فى نظام اجتماعى معين يجسدون بالبديهة مفهوم الإنسان الأقوى كما يتخيله هو.

- أن نعتقد بأن نيتشيه يقصد بفكرة العود الأبدى تلك الفكرة القديمة الموجودة عند اليونان والهنود والبابليين، أنه يقصد بها تجدد الأطوار الزمنية بعد فترة وأخرى، أو أن تكون عودة الآخر أو عودة للآخر.

- أن نعتقد أن مؤلفات نيتشيه المتأخرة يطبعها الجنون.

هذه المقاربات الطريفة(*) تفصح إلى حد بعيد عن طبيعة الصعوبات البنيوية التى قد تعترض الباحث فى فكر دولوز وفلسفته، وهى الصعوبات التى أخرت انتشاره فى محيطه الأوروبى الأقرب، إلا أن السنوات القليلة الماضية عرفت بداية اهتمام حقيقى بمنتوج دولوز «الزئبقى» خاصة بعد مقولة فوكو الشهيرة التى ذكرناها فى بداية المقال: فمن بريطانيا إلى ألمانيا، ومن إيطاليا إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى اليابان تمت ترجمة أهم مؤلفاته وبدأت الدراسات النقدية حولها فى الظهور تباعاً.

(*) ليس هنا مجال دراسة موقف دولوز من كل الفلاسفة والكتاب الذين أشرنا إليهم لعلاقتهم بدولوز، إذ أزمع القيام بتحليل بعض كتب دولوز التى تتمحور حول هؤلاء الفلاسفة كل على حده، وأهم هذه الكتب «نيتشه والفلسفة» (١٩٦٢)، «نيتشه» (١٩٦٥)، «الفلسفة النقدية عند كانط» (١٩٦٣)، «سبينوزا ومشكلة التعبير» (١٩٦٨)، وكتابه «فوكو» (١٩٨٦) وهو من أهم الكتب الفرنسية حول فوكو.

الهوامش

1 - Raymond Bellour : Gilles Deleuze : un philosophe nomade, in, magazine litteraire n=257, Septembre , 1988, P.14.

2 - Michel Foucault : Theatrum philosohicum : Gilles Deleuze, In, Critique, n =282 no Novembre, 1970, P.886.

3 - Signes et Evenements, propos recueillis par Raymond Bellour et Francois Ewald, in Gilles Deleuze : philosophie nomade, P.23.

4 - Gilles Deleuze et Felix Guattari : QU' est - ce - la philosophie ? Editions de minuit, Paris, 1991, P.9.

٥ – محمد بديع الكسم : الحقيقة الفلسفية، فى كتاب «الفلسفة العامة» (٢)، قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية ، جامعة دمشق (١٩٨٠-١٩٨١) ص.ص. ٢٩٦ – ٢٩٩.

6 - Raymond Bellour : Gilles Deleuze : un philosophe nomade, P.14.

7 - Jean Beaufret : Heidegger et la theologie, in, Kearny et autres , Heidegger et la question de dieu , editions Grasset , Paris , 1989 P.26.

8 - Gilles Deleuze et Felix Guattari P: Qu'est - ce - que la philosophie , P.100.

9 - Gilles Deleuze et Felix Guattari P: Qu'est - ce - que la philosophie , P.100.

10- Signes Et Evenements, P.19.

11- John Ray chman : logique du sens : Ethique de l'evenement, in, Gilles Deleuze:un philosophe nomade, 37.

12- GILLES deleuze : difference et repetition , editions p.u.f, Paris , 1968, P.P. 45-46.

13- GILLES deleuze et Felix Guattari : capitalisme et Schizophrenie : Tome I : L'anti - oedipe, Editions de minuit, Paris , 1972, introduction.

obeikandl.com